

محمد اقبال الشاعر الحكيم

۱۲۹۰-۱۳۵۷ / ۱۸۷۳-۱۹۳۸

للدكتور عبدالله العمراني

في ربيع سنة ۱۹۵۲ كانت تطوان تستقبل و فدا باكستانيا مؤلفا من عضوين هما السيد اكرام الله خان والاستاذ سعيد رمضان - و كانت دولة باكستان حديثة عهد بالوجود يومئذ، لم يكن عمرها يزيد على اربع سنوات و بضعة أشهر، و كان أن أشرتكت في حفل تكريم الوفد بالقاء قصيدة لا بأس بترديد بعض آياتها الان -

هي ذى دولة الباكستان هبت

فرنت نحوها الدنا بذعور :

اين كان العملاق ؟ في قمم الج

ن حبيسا ؟ أم في خفى الججور ؟

في السما ير قب النزول و يحنو

لحياة .. ؟ أم من وراء الستور ؟

بهت العالم الغرير بهذا

و راى أن سينتهى من غرور

فليدع جانبا تجاهله قو

ما أرادوا الحياة لا كالاسير

الى أن قلت :

أيها الشرق حان وقتك فانفض
و تسلم زمام كون غرير

أيها المسلمون في المشارق والغرب
ب، تعالوا الى كلام القدير :

” كنتم خير أمة أخرجت للناس
س، كنتمو - سهاية - كالهصور

مجدكم لن يفنى و عزكم الخا
لد باق ، كما بقاء الدهور

فاستعيدوا المجد التليد و خطوا
صفحة العز فوق هام العصور

أجل ، لقد اعتز جانب الاسلام بميلاد دولة باكستان ، بنت أفكار الشاعر
الحكيم محمد اقبال الذى تحتفل تطوان اليوم - مع مدن أخرى مغربية - بذكرى
ميلاده المئوية. لقد نادى اقبال بوجوب انفصال المسلمين عن الهندوس ،
و بتكوين دولة إسلامية مستقلة منذ سنة ١٩٣٠ .

و فى يناير ١٩٣٣ اقترح طلبة الهند المسلمون الدارسون بانكلترا اسما
للدولة الجديدة هو تركيب مزجى لطيف مؤلف من أحرف المقاطعات الهندية
التي كانت تقطنها أغلبية مسلمة : فالباء لمقاطعة بنجاب (١) ، والالف ترمز لمقاطعة

(١) الاسم فارسى مركب من (بنج) بمعنى خمسة و من (آب) و تعنى مياها أى أنهار و يقصد بها
روافد نهر السند الذى يتجه جنوبا فيصب فى البحر العربى جنوب شرقى مدينة كراتشى العاصمة
السابقة للدولة -

باتان الواقعة على الحدود الشمالية الغربية للهند ، و الكاف رمز لكشمير، أما السين فرمز للسند ، في حين أن "ستان" رمزت لمقاطعة بلوخرستان .

و جدير بالملاحظة أن اسم "باكستان" اقترح للمولود الجديد قبل ميلاده بنحو خمس عشرة سنة ، و ان مجموع الاسم يعنى بلاد الطهر لان "باك" تعنى الطهر ، و "ستان" بمعنى مكان أو بلاد .

يعتبر شاعرنا الحكيم من تلاميذ السيد أحمد خان (١٨١٧ - ١٨٩٩) الذى يعتبر الرائد والاب الروحي لزعماء مسلمى الهند و مفكريها المصلحين ، و منهم :

١ - الطاف حسين حالى المتوفى سنة ١٣٣٣هـ / ١٩١٤م و الذى اكتسبت اشعاره شعبية كبيرة ، لانها كانت تبكى و تتعاطف مع مظاهر البؤس ، وترثى لحال البائسين ، كما كانت تذكّر الاجيال الحاضرة بأجماد الماضى .

٢ - نظير احمد الذى كانت رواياته المكتوبة بلغة الاردو(١) تقرأ على نطاق واسع ، و كانت فى الوقت ذاته تدافع عن افكار تقليدية (كلاسيكية) أكثر مما كان يفعله استاذة السيد احمد خان .

٣ - محمد شبلى نعمانى المتوفى سنة ١٣٣٣هـ / ١٩١٤م : كان مؤرخا و شاعرا ، و كان يرى أن تمحص قيم الحاضرة الغربية ، و أن تفحص فحوصا جيدا

(١) الاردو لغة آرية (هند كل اوروية) غير سامية، و ان كانت كل مثل الفارسية كل تكتب بحروف سامية، أى بحروف عربية - الاردو لا تكاد تختلف عن لغة الهند الأخرى (هندو) الا من حيث الكتابة - فى احصاء أجرى للغات الثلاث و العشرين التى يزيد عدد متكلميها عن ٣٠ مليوناً، وحد ان الاردو تحتل المكانة ١٤، و الهندو المرتبة ٥، بينما اعطيت اللغتان العربية و الفرنسية الدرجتين التاسعة و الحادية عشرة على التوالى - يرجع تاريخ الاحصاء الى سنة ١٩٦٠ -

بمعيار اسلامى صميم ، كما كان يسعى فى سبيل الاصلاح الدينى بالهند عن طريق قوات الاسلام الداخلى الخاصة به .

٤ - سيد امير على المتوفى سنة ١٣٤٧ هـ / ١٩٢٨ م : كان مؤرخا له كتاب "مختصر تاريخ العرب" ، كما كان مصلحا دينيا و اجتماعيا ، له كتاب "روح الاسلام" - كلا الكتاين كتب بالانكليزية و ترجم الى العربية .

٥ - محمد اقبال : شاعر الاسلام المجد ، و حكيمة النابه ، و صاحب فكرة تأسيس دولة اسلامية بالهند الحديثة ، والمتفطن - منذ وقت مبكر - الى استحالة معايشة الهندوس الوثنيين ، فقد كتب سنة ١٩٠٩ يقول :

"كنت ارى واعتقد ان الخلافات الدينية ينبغى ان تمحى فى هذه البلاد . ولا ازال اعمل لذلك فى حياتى الخاصة ، ولكنى أجد اليوم أن محافظة كل من الامتين على كيانها مطلوبة بين المسلمين و الهند ستانيين ، و أن الوطن الموحد فى الهند لمن الاحلام الجميلة التى تروق الامزجة الشعرية ، و لكنه عند النظر الى الاحوال الحاضرة ، و النزعات الباطنة يبدو غير قابل للتحقيق" .

يعد "سير" محمد اقبال ثالث ثلاثة شعراء كبار ، احد هم الشاعر "حالى" ، الآنف الذكر ، والآخر هو الشاعر غالب الذى قام فى شعر لغة الاردو بدور يشبه ما قام به محمود سامى البارودى فى الشعر العربى الحديث : كلاهما عمل على تحسين الشعر ، و اقالته من عثرته ، و أكساب الشعر القديم طابعا عصريا جديدا -

كان اقبال فى شبابه مثال الطالب المجد النشط . زوال تعليمه العالى فى الكلية الاسكتلندية بمدينة لاهور فى باكستان ، و احرز على شهادتها بدرجة ممتاز ، ثم حصل على درجتين علميتين من كلية الحكومة فى لاهور ، حيث تتلمذ على

المستشرق المعروف سير توماس أرنولد. و في سنة ١٩٠٥ انتقل الى انكلترا فدرس بجامعة كمبردج ثم الى المانيا فدرس بجامعة هيدلبرك و جامعة سيونيخ ، و توج دراساته تلك باحرازه على درجة الدكتوراه في الفلسفة ، و كان موضوع اطروحته "الفكرة العقلية بايران"، . و لكن هذا كله لم يمنعه من متابعة نشاطه العلمي ، و اشباع نهمه في مجال الفلسفة و التصوف.

و قد اتقن اقبال عدة لغات منها العربية ، غير ان انتاجه المعروف لدينا هو - في ميدان الشعر - باحدى اللغتين : لغة الاردو الوطنية أو اللغة الفارسية التي كانت سائدة بالهند ، و خاصة قبل الاحتلال - اما انتاجه العقلي الفلسفي فكان باللغة الانكليزية التي فرضها الاحتلال الانجليزي لغة رسمية للبلاد.

يعتقد الباحثون أن أكبر شاعر هندي كتب شعره باللغة الفارسية هو الدكتور محمد اقبال الذي يعتبر احد الشعراء المحدثين القلائل الذين تسود اشعارهم روح المبادئ الاسلامية في مجالات الاخلاق و السياسة و شؤون الكون. و قد يلاحظ المطلع على اشعار اقبال أنها تثير في قارئها الاعجاب بروح الشاعر ، أكثر مما تثيره فيه بالشكل او الاسلوب ، ذلك أن اللغة الفارسية التي كتب بها كثيرا من أشعاره ، و التي درسها و تمكن منها تمام التمكن ، تعتبر في الواقع شيئا مكتسبا بالنسبة اليه.

ومن اعماله الادبية و قصائده الشعرية ما يلي :

١ - اسرار خودي

أي اسرار "الانا" ، أو أسرار الذات - و قد كتبها بالفارسية سنة ١٣٣٤ هـ

الموافقة لسنة ١٩١٠ م .

٢ - بياض مشرق

أى رسالة المشرق - كتبها بالفارسية سنة ١٣٤٢هـ / ١٩٢٣م - و كانت بمثابة جواب على شاعر المانيا العظيم (غوته) الذى كتب بالالمانية كتابه الموسوم : West Ostlicher Diwan

٣ - بانك درا

و قد الف هذا الكتاب بلغة الاردو سنة ١٣٤٣ / ١٩٢٤ ، و يحتوى على :

أى انشودة التى كانت الى جانب : "باندى ماتارام" المؤلفه بالبنغالية ، من الاناشيد الوطنية التى كانت تردد أثناء عهود الاضطراب التى سبقت استقلال الهند و تقسيمها الى دولتين : اسلامية و هندوسية - و تبدأ "انشودة الهند" هكذا :

هندنا زينة الدنيا

نحن البلابل وهى حديقتنا

٤ - زبور عجم

أى زبور العجم او زبور العجم، و قد الفه بالفارسية سنة ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م و بعد قليل سنقتبس منه بعض دوره -

٥ - جافيد نامه

بمعنى "الكتاب الخالد" ، يقول المستشرق الايطالى (اليساندرو باوسانى) انه ترجم الى الايطالية بعنوان القصيدة السماوية Poema Celeste و يقول كما

قال المستشرق الانكليزي الاستاذ بجامعة لندن "الفريد غيوم" : ان الكتاب الخالد يعتبر صدى للكويديا الالهية التي ألفها الشاعر الايطالى دانتي اليكيري (١٢٦٥ - ١٣٢١ م).

و لكننا نقول لهذين الباحثين وغيرهما : لم لا يكون "الكتاب الخالد"، و تكون "الكويديا الالهية"، نفسها صدى "رسالة الغفران"، للمعري، او لقصة المعراج المعروفة جيدا فى الادب الاسلامى ؟ فمن الثابت علميا أن دانتي استفاد من رسالة الغفران، فقد ترجمها الى اللاتينية و الفرنسية مواطن لدانتي اسمه Bonaventura da siena سنة ١٢٦٤م أى قبل ميلاد دانتي بسنة واحدة. و هذا المترجم الايطالى نقل عن ترجمة اسبانية، كان نقلها عن العربية مباشرة يهودى اندلوسى يدعى أبراهام و ذلك فى بلاط ألفونسو العاشر المعروف بالحكيم El Sabio .

جعل اقبال موضوع كتابه الخالد رحلة روحية شبيهة برحلة رسالة الغفران او الكويديا الالهية، الا انه جعل مرشده فى الرحلة المتصوف العلامة جلال الدين الرومى بدلا من قرجيل او ابن قارح. و لقد استقبل فى الرحلة شخصيات تاريخية مختلفة منها شخصية موقظ الشرق الاسلامى فى القرن التاسع عشر السيد جمال الدين الافغانى الذى قال له :

لنا عالم ضائع فى اعماق قلوبنا

عالم ينتظر انبعائه

عالم يتغاضى عن الجنس و اللون

عالم هو فى غسقه اشد اشراقا من فجر أوروبا

عالم خال من الملوك و العبيد
عالم شبيه بقلب المسلم ، لا حدود له

عالم زرعت بذوره
لمحة واحدة في قلب عمر

عالم خالد بلهب متجددة
بأوراق و ثمار و مبادئ مستجدة
بباطن ثابت لا يريم
و ظاهر متغير الثورات مستمرها

ذلك هو عالمك الذى فى قلبك
أنظر اليه ، أنى أنبتك عن جوهره

٦ - و من تاليفه أيضا :

The Secrets of Self lessness

The Garden of Mystery — ٧

The Caravan Bell — ٨

The Traveller — ٩

The Gift of Hijaz — ١٠

١١ - واخيرا كتابه الفلسفى :

Six Lectures on the Reconstruction of
Religious Thought in Islam

و قد ترجمه الاستاذ عباس محمود بعنوان : "تجديد التفكير الدينى فى

في الاسلام،، ، و صدرت الترجمة في طبعتها الثانية عن (لجنة التأليف و الترجمة و النشر)
بالقاهرة سنة ١٩٦٨ م .

يقول المؤلف في مقدمة كتابه أنه أعد هذه المحاضرات بناء على طلب
الجمعية الاسلامية بمدينة مدراس ، و القاها بهذه المدينة ، وفي حيدر أباد وفي كلية
عليكرة . حاول شاعرنا الحكيم في هذه المحاضرات أن يبنى الفلسفة الدينية الاسلامية
بناء جديدا آخذا بعين الاعتبار ، المأثور من فلسفة الاسلام الى جانب ما جرى
على المعرفة الانسانية من تطور في نواحيها المختلفة . واللحظة مناسبة كل المناسبة
لعمل كهذا . (الترجمة : ص ٢) .

و يعلق البروفسور غيوم على هذا قائلا : ” على الرغم من أن اقبال كان
له نفوذ كبير في تفكير مسلمي الهند ، الا ان من المشكوك فيه أن يكون ما سماه
هو ” اعادة بناء Reconstruction يعتبر في الواقع كذلك ،، . (Islam
الناشر ” ينكوين بوكس ،، ، الطبعة الرابعة سنة ١٩٦٢ ص ١٦٠) .

ان مسألة أفعال باب الاجتهاد في عصور الانحطاط ، شغلت أذهان كثير
من المفكرين المسلمين في العصر الحديث . و أن أصحاب المذاهب الفقهية
المعروفة لم يزعم واحد منهم لنفسه أن استنتاجاته و تفسيراته ، لها — دون
غيرها — الكلمة النهائية والاخيرة . من هنا ينطلق الدكتور اقبال ليقول : أن
مطالبة الجيل الحاضر من المسلمين الليبراليين باعادة تفسير المبادئ القانونية
الاساسية على ضوء خبراتهم الخاصة ، والاحوال المتقلبة للحياة الحديثة ، هي في
نظري لها ما يبررها تماما .

ذات مرة نشر الشاعر العالم الاجتماعي التركي ضياء كوك ألب قصيدة
تساءل فيها كيف أن الشريعة الاسلامية استطاعت أن تحترق من شأن النساء ؟

فيجب أن يكون هناك مساواة في الطلاق ، في الانفصال ، وفي الميراث - فكتب اقبال يقول : ” بالنظر الى المحافظة الشديدة لمسلمي الهند ، فان القضاة الهنود لا يستطيعون الا أن يتشبهوا بما يسمى بالكتب المعيارية ” .

يبدو أن هذا موقف ضعيف - كما قال البروفيسور غيوم - بعد كلمات اقبال الشجاعة التي سبقت الاشارة اليها أعلاه ، و ان من المساواة الضعيفة لامرأة استلمت نصف نصيب أخيها في ميراث والدها أن يقال لها أن القانون ” لا يفرض تفوق الرجال على النساء ، ففرض كهذا ينبغي أن يكون منافيا لروح الاسلام ” - و لكن اقبال ظل متمسكا بموقف القرآن الثابت ، الذي ينص (في الاية ٢٢٨ من سورة البقرة) على أن للرجال على النساء درجة - Islam ص . ١٦٣ -) - و يظل اقبال - امام ظلم المرأة - حيران لا يجد للمشكلة حلا - قال في قصيدة قصيرة :

أنا أيضا أكثر حسرة على اعتساف النساء

ولكن المشكلة معقدة ، فلا حل أجده ممكنا

ولكن هل المرأة مهضومة الحقوق في الاسلام حقا ؟ لا أعتقد أن الاسلام الصحيح حرم المرأة العربية حقوقها . بل لقد منحها حقوقا لم تكن تتمتع بها أختها في الدول أو الشعوب المعاصرة لظهور الاسلام ، ولا نالتها اختها في بعض الشرائع الغربية الحديثة . و عند ما نمعن النظر في القضايا الثلاث المثارة هنا ، وهي : الميراث - الطلاق - الدرجة ، نجد الشريعة الاسلامية فيما يتعلق بالميراث جعلت المرأة ترث نصيب أخيها لان واجباته اقل من واجباتها فهو :

١ - ملزم عند الزواج بتقديم المهر لمن يريد لها شريكة حياته .

ب- ملزم باسكان زوجته وكسوتها والانفاق عليها و على اولاده منها
و على خادماتها و على والديه و اقربائه احيانا .

ج- ملزم بالكد والتعب والبحث عن توفير و سائل العيش و الراحة
له ولجميع أفراد أسرته .

بينما المرأة ملزمة فقط بما توجهه عليها طبيعتها فهي تدبر شؤون المنزل
الداخلية ، و تتفرغ لشؤون الولادة و السهر على تربية الاولاد تربية حسنة . . .
فهي عند التدقيق فى النظر والبحث نجدها وافرة الحقوق ، وربما كانت أسعد
حظا من الرجل .

و فيما يتعلق بالطلاق ، نجد الشرع ينظر اليه على أنه علاج لفشل فى
الحياة الزوجية لم يمكن تفاديه بطرق أخرى . . و اوقعه - و هو أبغض الحلال
عند الله - فى احوال :

ا - اذا استاء الزوج من معاشرتها وسوء معاملتها له ، أسكنه تطليقها بلا مقابل
تدفعه ، و بلا مقاضاة .

ب- اذا ملك الزوج زوجته أمر نفسها ، وجعل عصمتها بيدها ، فلها
أن تطلق نفسها منه ان ارادت .

ج - اذا استاءت الزوجة من معاملة زوجها ، وأقنتع القاضى بسوء معاملته ،
طلقها عليه .

د- اذا ساءت العشرة و أبى الزوج تطليق زوجته ، فلها أن تدفع ما
يعرف بـ - "الخلع" . اما اذا ثبت أن الزوج تحايل على أخذ الخلع ، و اكره الزوجة
على دفعه ، فان القاضى يوقع الطلاق و يرد للزوجة ما دفعته .

أما فيما يتعلق بزيادة الدرجة ، فإن القرآن الكريم قرر المساواة بين الزوجين فى الحقوق والواجبات ، و لكنه عاد فزاد الزوج مسؤولية الاشراف والقوامة لى يتسنى له أن يحمى الزوجة ويقيها كل مكروه و ياخذ بيدها الى المكارم . قال تعالى : ” ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة “ . على أن الدرجة – كما يقول الامام الاكبر الشيخ محمود شلتوت فى كتابه الاسلام عقيدة و شريعة ص ١٦٣ – ”هى ليست درجة سلطان او قهر ، وانما درجة رياسة و تدبير لشؤون المنزل ناشئة عن عقد الزوجية“ .

لندع جانبا مشاكل الاجتهاد والمساواة فى الطلاق والميراث وغيرها ، ولنفتح صفحة من كتاب اقبال ”زبور العجم“ فنقرأ فيها بعض الحكم البالغة :

أين يكون فى قلوبنا

ذلك الهوى المتقد ؟

عندنا جرة

ولكن ، أين هى الخمر فيها ؟

حق أننا خلقنا من تراب

والعالم أيضا صنع من تراب

ولكن بالتراب هباءات نائرة تبعث عن النور

من أين ياتينا ذلك الحافز ؟

ننظر الى السماء الملامى بالنجوم

و عواصف الحب ملء قلوبنا

من أين تاتى تلك العاصفة ؟

رحلة الحب جد طويلة
ولكنك أحيانا بأهة تستطيع أن تعبر تلك الصحراء الشاسعة
أبحث وأبحث أيضا دون أن تفقد أملا
فيمكنك أن تجد يوما ما كنزا فى طريقك
قلبي وعيناي كلها مكرسة للرؤية
هذا الذى نحت من أجله
الاصنام من الصخر
تخفى وجهك وراء براقع خفية
فاذا لم استطع الشكوى
فاى شىء آخر يجب أن أفعله ؟

— — — —

أن أكثر ما كان يعجب الاجيال الصاعدة من الشباب الهندى المسلم ،
هذه الفردية القوية فى شعر إقبال ، وتلك الروح الثورية الشبيهة بما كان عند
الفيلسوف الالمانى المعاصر فريدريك و يلهلم نيتشه F.W. Nietzsche
(١٨٤٤هـ / ١٩٠٠م) - لنستمع الى إقبال يقول :

فى هذا العجاج القديم أرى حلية للحياة ثمينة
أرى عين كل ذرة ساهرة كالنجوم
والبذرة المستترة بعد فى رحم الارض
أرى النمو فى عدة أعصان شابة سلاى بالثمار ..
أرى ، ولا ادرى كيف أرى ذلك ، ثورة لا

يستطيع أن يسعها فضاء السماء ..

في هذه الليالي الليلاء أعطوني بشارة الفجر

اطفأوا الشعلة وأعطوا اشارة الشمس المفرحة.

كان الشاعر الحكيم أقبال يؤمن بحرية الارادة ، فلم يفهم من عقيدة
القضاء والقدر معنى الاستنامة والتواكل ، بقدر ما فهم منها روح العمل والاقدام
والابتكار .. ها هو ذا في "رسالة المشرق" ، نجده يقول تحت عنوان " أفكار
نجوم" .

سمعت نجمة تقول لاختها :

اننا في بحر كبير لا يرى له ساحل قط

نحن مصنوعات من طبيعة رحالة

ولكن قافلتنا لا محطة لها بتاتا

ما أسعد الانسان ذا النفس العاطفية والمتقلبة !

فارس جواد العصر

فهو مبتكر دائما و مجدد بلا انقطاع

يضبط حسب قامته ثوب الحياة

— — — —

و لعل من المناسب في هذا المقام و نحن نكرم ميلاد شاعر باكستاني
حكيم ، و مفكر اسلاسى عظيم ، أن نلتفت الى الوراثة ثلاثة عشر قرنا كاسلة ، لنكرم
ذكرى وفاة فاتح السند العظيم ، القائد الشاب ، البطل الشهيد ، محمد بن القاسم
الثقفي (٧٣ / ٩٦ هـ) الذى غزا الهند بقوتين برية وبحرية و عمره لم يتجاوز
السابعة عشرة من عمره :

إن المروءة والسماحة والندى
 لمحمد بن القاسم بن محمد
 ساس الجيوش لسبع عشرة حجة
 يا قرب ذلك مؤددا من مولد !

هذا الفاتح الذى أدخل الاسلام إلى شبه القارة الهندية ، فاضاف جوهرة
 ثمينة الى تاج الخلافة الاموية ، جازاه الخليفة سليمان بن عبد الملك جزاء منمار ،
 ونكبه شر نكبة ، كما نكب فاتحى الغرب العظيمين موسى بن نصير و طارق بن
 زياد. لكأنى بسليمان لم يتول الملك بعد أخيه الوليد الا ليصفى حساب الابطال ،
 وينكب الفاتحين العظام.

فترجو أن نعترف لهؤلاء الفاتحين بشيء من الجميل ، فنترحم عليهم
 الى جانب شاعرنا الحكيم محمد اقبال ، و نقرأ على أرواحهم الطاهرة جميعا فاتحة
 كتاب الله العزيز. و نعم الفاتحة خاتمة !

(منقولة من دعوة الحق، العدد السابع ،
 السمة السادسة عشرة ، مع الشكر.)